"تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"

في رواية الإمام أحمد وغيره "احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك. وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً".

نعيش في هذا اللقاء مع وصية النبي صلى الله عليه وسلم الثانية: " احفظ الله تجده تجاهك" والثالثة : "تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"

أولا قوله صلى الله عليه وسلم : (احفظ الله تجده تجاهك) (وتنطق تجاهك بضم التاء وكسرها)

معناه أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)النحل128

قال قتادة : من يتق الله يكن معه ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يضل .

وكتب بعض السلف إلى أخ له أما بعد فإن كان الله معك فمن تخاف وإن كان عليك فمن ترجو .

وهذه المعية الخاصة هي المذكورة في قوله تعالى لموسى وهارون (لا تخافا إنني

معكما أسمع وأرى) طه 46

وقول موسى (كلا إن معي ربي سيهدين) الشعراء 62

وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وهما في الغار (ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن الله معنا) فهذه المعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة ؛ بخلاف المعية المذكورة في قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) المجادلة 7

فإن هذه المعية تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم فهي مقتضية لتخويف العباد منه والمعية الأولي تقتضي حفظه ونصره ، فمن حفظ الله وراعى حقوقه وجده أمامه وتجاهه على كل حال فاستأنس به واستغنى عن خلقه .

وقيل لبعضهم : ألا تستوحش وحدك ؟ فقال كيف أستوحش وهو يقول أنا جليس من ذكرني .

أما عن الوصية الثالثة فقوله صلى الله عليه وسلم : "تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة"

الرخاء ضد الشِّدّة ، وحال الرخاء يشمل كل أحوال الإنسان الاعتيادية ، أما الشدائد فهي عارضة وليست دائمة .

والمعنى : أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه فقد تعرف بذلك إلى الله وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة فعرفه ربه في الشدة ، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه .

وهي المشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه (ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه) وفي رواية ولئن دعاني لأجيبنه"

فالمسلم يلجأ إلى الله تعالى في أحواله كلها؛ في سرَّائه وضرَّائه، وشدَّته ورخائه، وصحته وسقمه، فلا يقتصر ذلك في حال الشدة فقط إذ أن ملازمةُ المسلم للطاعة والدعاء حال الرخاءِ، ومواظبته على ذلك في حال السرَّاء سببٌ عظيمٌ لإجابة الدعاء عند الشدائد والمصائب والكُرَب والبلاء، وقد جاء في الحديث أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (مَن سرَّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فلْيُكثِر الدعاءَ في الرخاء) رواه الترمذي، والحاكم، وغيرُهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسنده حسن

وقد ذمَّ الله في مواطن كثيرة من كتابه العزيز من لا يلجأون إلى الله ولا يُخلصون الدِّين إلاَّ في حال شدَّتهم، أمَّا في حال رخائهم ويُسرهم وسرَّائهم ، فإنَّهم يُعرضون وينسون ما كانوا عليه يقول الله تعالى: " وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا

إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ "

ويقول تعالى: " وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ " فهي تدلُّ دلالة واضحة على ذمِّ مَن لا يعرف الله إلاَّ في حال ضرَّائه وشدَّته، أمَّا في حال رخائه فإنَّه يكون في صدود وإعراض ولَهوٍ وغفلة وعدم إقبال على الله تبارك وتعالى فالواجبَ على المسلم أن يُقبلَ على الله في أحواله كلِّها في اليُسرِ والعُسرِ، والرخاءِ والشدّةِ، والغنى والفقرِ، والصحةِ والمرضِ، ومَن تعرَّف على الله في الرخاء عرفه الله في الشدَّة، فكان له معيناً وحافظاً ومؤيّداً وناصراً .

قال ابن رجب رحمه الله: "معرفة العبد لربه نوعان:

أحدُهما: المعرفةُ العامة، وهي معرفةُ الإقرار به والتَّصديق والإيمان، وهذه عامةٌ للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميلَ القلب إلى الله بالكلية، والانقطاعَ إليه، والأُنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكينُ أهلُ الدُّنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيبَ ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفةُ الله عز وجل".
وقال أحمدُ بنُ عاصم الأنطاكيُّ: "أحبُّ أنْ لا أموتَ حتّى أعرفَ مولاي".
ومعرفة الله أيضاً لعبده نوعان:

معرفة عامة وهي علمه سبحانه بعباده، واطِّلاعه على ما أسرُّوه وما أعلنوه، كما قال: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) ، وقال: (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)،

والثاني: معرفة خاصة: وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبَه إليه، وإجابةَ دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يحكى عن ربِّه: «ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِل حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، فلئن سألني، لأُعطِيَنَّهُ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه».ا.هـ

مقارنة بين يونس وهو في بطن الحوت وفرعون وهو يغرق :

معرفة الله والإيمان به وتعظيمه ليس شيئا طارئا لينقذ الإنسان نفسه من الهلكة كما فعل عدو الله فرعون حينما أدركه الغرق لجأ إلى الله وقال : (آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) يونس

فيجيبه الله (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)يونس

ومن الملفت للنظر أن المد في (آلآن) في قراءة حفص مد لازم ست حركات "آلآن" لم تتذكر أن لك إلها تؤمن به إلا الآن

أمَّا سيدنا يونس حينما ابتلعَهُ الحوت (فنادى في الظلمات أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) الأنبياء

لماذا قُبِلَت هذه الكلمة من يونس ولم تُقبل من فرعون ؟ كلاهما في المحنة قال : لا إله إلا الله ؟

فرعون ما عَرَفَ الله قبل المحنة لذلك ما نفعته عند المحنة

سيدنا يونس عَرَفَ الله قبل المحنة فلما جاءت المحنة نفعته هذه الكلمة هذا أول فرق فرعون الذي قال بكل كبر وغرور (أنا ربكم الأعلى) النازعات24

أما يونس نادى وهو مكظوم (لاإِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)(٨٧) الأنبياء

هناك شيءٌ آخر : وهو أنَّ سيدنا يونس قال " لا إله إلا أنت سبحانك" كلمة (أنت) يخاطبه وجهاً لوجهٍ .

أما فرعون فماذا قال؟ قال " لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل "

سيدنا يونس قال : "لا إله إلا أنت" وكأنه يرى الله معه

أما فرعون سمع أنه يوجد إله لموسى بيده كل شيء فلما شرع في الغرق شعَر أن إله موسى هو الذي أغرقه فقال " آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل " ، فذِكرُ ضمير الغائب دليل على أنه غير مُتحقق .

قُبلتْ (لا إله إلا الله) من سيدنا يونس لأنه كان من المُسبحين ولم تُقبل من فرعون لأنه لم يكن من المُسبحين .
ففِرعون حينما قال :لا إله إلا الله قبل أن يغرق قالها ليتخلّص من الغرق

الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار

قص النبي عليه السلام خبر الثلاثة من بني إسرائيل آواهم المبيت إلى غار فتدهدهت عليهم صخرة عظيمة أغلقت فم الغار فإذا الغار صندوق مغلق محكم الإغلاق, مقفل موثق الإقفال. إن نادوا فلن يسمع نداؤهم, وإن استنجدوا فلا أحد ينجدهم, وإن دفعوا فسواعدهم أضعف وأعجز من أن تدفع صخرة عظيمة سدت فم الغار, وكانت كربة, وكانت شدة, فلم يجدوا وسيلة يتوسلون بها في هذه الشدة إلا أن يتذكروا معاملتهم في الرخاء, فدعوا الله في الشدة بصالح أعمالهم في الرخاء.
دعا أحدهم ببره والديه, يوم أتى فوجدهما نائمين، وطعامهما قدح من لبن في يده، وصبيته يتضاغون(يبكون) من الجوع, وكان بين خيارين إما أن يوقظ الوالدين من النوم, وإما أن يطعم الصبية!! فلم يختر أيًا من هذين الخيارين, ولكن اختار خيارًا ثالثًا وهو أن يقف والقدح على يده والصبية يتضاغون عند قدميه، ينتظر استيقاظ الوالدين الكبيرين, والوالدان يغطان في نوم عميق حتى انبلج الصبح وأسفر الفجر فاستيقظا، وبدأ بهما وأعرض عن حنان الأبوة وقدم عليه حنان البنوة على الأبوة فشرب أبواه وانتظر بنوه. "اللهم إن كنت تعلم أني

فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه".

ثم دعا الآخر, فتوسل إلى الله بخشيته لله ومراقبته يوم أن قدر على المعصية, وتمكن من الفاحشة ووصل إلى أحب الناس إليه، ابنة عمه, بعد أن اشتاق إليها طويلاً وراودها كثيرًا وحاول فأعيته المحاولة, حتى إذا أمكنته الفرصة واستطاع أن يصل إلى شهوته وينال لذته خاطبت فيه تلك المرأة مراقبة الله فقالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه, فارتعد القلب واقشعر الجلد، ووجفت النفس وتذكر مراقبة الله تعالى فوقه، فقام عنها، وهي أحب الناس إليه وترك المال الذي أعطاها."اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه".

ودعا الثالث فتوسل بعمل صالح قربه, وهو الصدق والأمانة حيث استأجر أجراء فأعطاهم أجرهم, وبقي واحد لم يأخذ أجره فنمّاه وضارب فيه, فإذا عبيد وماشية وثمر.... ثم جاء الأجير بعد زمن طويل يقول: أعطني حقي.

فكان أمينًا غاية الأمانة, نزيهًا غاية النزاهة, فقال: حقك ما تراه, كل هذا الرقيق, وكل هذه الماشية, كلها لك, فكانت مفاجأة لم يستوعبها عقل هذا الأجير الفقير, فقال: "اتق الله ولا تستهزئ بي" فقال: يا عبد الله إني لا أستهزئ بك, إن هذا كله لك, فاستاقه جميعًا, ولم يترك له شيئًا."اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه".

وتنامت دعواتهم, فإذا الشدة تفرج والضيق يتسع, وإذا النور يشع من جديد

فيخرجون من الغار يمشون

الله أكبر صدق نبينا عليه الصلاة والسلام تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة .